

الحياة الاقتصادية في مدينة بغداد في العصر العباسي

الباحث : مرتضى حسن نحو الدلفي

طالب دكتوراه في كلية العلوم والمعارف , قسم تاريخ الحضارة الاسلامية , جامعة المصطفى العالمية , قم , ايران

المشرف : الدكتور مهدي موري

استاذ مساعد في كلية العلوم والمعارف , قسم تاريخ الحضارة الاسلامية , جامعة ازيد الاسلامية , فرع بادكار امام

(ره) طهران , ايران

Economic life in the city of Baghdad in the Abbasid era

Mortada Hassan nahw aldelph

murtazaaldelfy1995@gmail.com

الملخص:

يشكل الجانب الاقتصادي سببا مهما ورئيسي للأستيطان وتكوين المجتمعات وهذا بدوره يؤدي الى تكوين وانشاء المدن فبطبيعة الانسان يذهب حيث يجد ما يسد به حاجته وسد جوعه وبحثا عن لقمة العيش وسبل العمل قديما كان ام حديثا وعند ظهور الاسلام حث على العمل بشتى اشكاله ام من خلال الآيات القرآنية او احاديث الرسول الاكرم (ص) فقام المسلمون عبر العصور من النبي الاكرم الى ما بعده من السنوات والفترات يبحثون ويأسسون المدن الخاصة بهم وصولا الى الخليفة العباسي الثاني عندما وصل الى دكة الحكم كان اختيار العاصمة للدولة العباسية شغله الشاغل حيث كان العامل الاقتصادي سببا مهما ادى الى قيام المنصور باختيار العاصمة فأختار بغداد جاء بعد تفحص ودراسة دقيقه من حيث الموقع ونوع التربة فوقعها على دجلة والفرات ادى الى ازدهار الزراعة وتوفر العديد من المحاصيل الزراعية ليكون عامل مهم في قيام التجارة لما تنوعت فيه من المحصولات الزراعية العديدة كالحبوب المتنوعة والنخيل والاعناب وغيرها كذلك وقوع مدينة بغداد على نهر دجلة ادى الى ازدهار التجارة من خلال تنشيط نظام الملاحة حيث نقل البضائع وتأسيس الموانئ وتبادل السلع مع مختلف البلدان هذا ما يميز مدينة بغداد عن غيرها من باقي المدن الاسلامية الاخرى. **الكلمات المفتاحية:** الحياة الاقتصادية، مدينة بغداد، العصر العباسي.

Abstract: The economic aspect and reason constitute an important and primary reason for settlement and the formation of societies, and this in turn leads to the formation and establishment of cities. By nature, man goes where he finds what satisfies his need and satisfies his hunger and in search of a livelihood and means of work, whether ancient or modern. When Islam appeared, it urged work in all its forms, whether through Quranic verses or the hadiths of the Noble Messenger (PBUH). Muslims throughout the ages, from the Noble Prophet to the years and periods after him, searched and established their own cities, reaching the second Abbasid Caliph when he reached the seat of power. Choosing the capital for the Abbasid state was his main concern, as the economic factor was an important reason that led Al-Mansur to choose the capital. Choosing Baghdad came after careful examination and study in terms of location and type of soil. Its location on the Tigris and Euphrates led to the prosperity of agriculture and the availability of many agricultural crops to be an important factor in the establishment of trade due to the diversity of agricultural crops such as various grains, palm trees, grapes, and others. Also, the location of the city of Baghdad on the Tigris River led to The flourishing of trade through the activation of the navigation system, the transportation of goods, the establishment of ports, and the exchange of goods with different countries, is what distinguishes the city of Baghdad from other Islamic cities. **Keywords:** Economic life, the city of Baghdad, the Abbasid era.

المورد الأول: النظام الاقتصادي في بغداد والموارد المالية عرف عن الخليفة المنصور ميله إلى الاقتصاد في النفقات حتى امتلأت خزائنه بالأموال، لذلك ترك لابنه المهدي ثروة جعلته طول فترة حكمه هادئاً، وكان المنصور يراقب أولاده حتى لا يدعهم يميلون إلى الإسراف، وكانت ارزاق العمال في أيامه ثلاثمائة درهم (٣٠٠ درهم) واستمر الأمر على ذلك إلى أيام المأمون، فكان أول من سن زيادة الأرزاق الفضل بن سهل. (يعقوب: ١٩٨٠، ص ١٨) كان الاقتصاد العباسي يعتمد على الخراج وغيره من موارد بيت مال المسلمين، عدا الضريبة التي تؤخذ ما تنتجه الأرض من الحبوب، ففاضت خزائن العباسيين بالأموال التي كانت تجبي من الضرائب فبلغت ما يقرب من اثنين وأربعين مليون (٤٢٠.٠٠٠.٠٠٠ من الدراهم)، فجمعت على النمط التي سارت عليه الدولة الإسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه واله وسلم والخلفاء الراشدين من بعده حتى لا يقع هيف على الرعية فيثقل الجور كاهلهم، حتى يكون بيت المال قائماً بما يجب عليه من مصالح الأمة وحفظ ثغورها وتأمين أطرافها. (يعقوب: ١٩٨٠، ص ١٨)

الموارد المالية الخاصة بالدولة العباسية

١- خمس غنائم الحرب الغنيمة هي كل ما غنمه المسلمون من عساكر أهل الشرك، وما أخذوه من المتاع والسلاح وإضاف إليها القاضي أبو يوسف ما أصيب من معادن من الذهب والفضة والكنوز العدية، وما أخرج من البحر من الحلي والعنبر، وأن هذه الغنائم حكمها واحد وهو لبيت المال خمسة، أما أربعة الأخصاس الباقية فتكون حقا للقاتحين فيما غنموه مع المحاربين وبين الله في كتابه مصرف الخمس في قوله تعالى: (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). (الأنفال: ٤١)

٢- الخراج يعد المورد الثاني من موارد الخلافة لأهميته، بضم وظيفة الأرض الخراجية وثم جزية أهل الذمة، والعشور التي في عهد عمر بن الخطاب ولم يرد لها ذكر في القرآن الكريم، وحد أرض الخراج: كل أرض من أراضي الأعاجم دخل عليها المسلمون عنوة ولم يقسمها الإمام بل وأبقاها بأيدي أهلها، ومسيرهم لمة، ويخرج الإمام من ذلك أنواع من الأراضي لا يوضع عليها الخراج وإنما تكون أرضاً عشوية: هي كل أرض المسلمين من غير بني تغلب، وكل أرض للأعاجم أسلم عليها أهلها طوعاً. (حسن: ١٩٨٦، ٥٨١)

ثم سار خلفاء العباسيين على نظام إقطاع بعض أعيان دولتهم، ومنحهم قطائع من الأرض يعمرونها ويسكنونها مكافأة لهم على ما قدموه من خدمات، ثم عمرت هذه القطائع واتسع نطاقها وازدحمت بالسكان، وأصبحت كل قطيعة تعرف باسم الرجل أو الطائفة التي تسكنها، مثل قطيعة العباس بن محمد بن عبد الله بن العباس، وقطيعة الربيع بن يونس كان بها تجار من خراسان وظهر هذا النظام في عهد أبي جعفر المنصور، فكان كبار رجال الدولة يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً من المال. (حسن: ١٩٨٦، ٥٨١)

وكانت الضرائب تحدد على أساس تقارير المساحين، الذين كانوا ربما زادوا في المساحة من واحد إلى اثنين في العشرة، ثم تحضر لوائح المطالبين وتسلم إلى المستخرج، الذي كان يبيث الفرسان والرجالة والمستحثين، فيضربون ويقيدون ويحملون المال، ويودعونه عند الجهيذ. (سعيد: ١٩٩٣، ٧٠) في تلك الفترة كانت الزيادات التي يطلبها عمال الخليفة تقسم على أهل البلد وكثيراً ما كانوا يعفون من يريدون، وتزداد المبالغ بإزائها على غيرهم. وكان مال الحراج يتصرفون بمبادرات شخصية، فيلحون بالمطالبة بالخراج، حتى احرق بعضهم دور المطالبين. وكان بعض العمال أيضاً يقطع لنفسه من غلات المقاسمة، ومنهم من يتبع صغار الفلاحين، حتى يؤدي ذلك إلى ذهاب غلاتهم، أو يضطرون لبذل الرشاري للمستخرجين. وكان المطالبون يغرمون للرجالة جمعاً، وغير ذلك من أنواع التسلط الذي كان يمارسه المستخرجون، مما دفع الوزير علي بن عيسى لأن يوجه برسائل إلى عمال الخراج بأمرهم فيها بالرفق في الجباية. (فوزي: ١٩٧٧، ٨٢)

٣- الصدقات (الزكاة) هي ما يؤخذ من المسلمين من انعامهم على حساب معين في الفقه الإسلامي، ومن نفودهم التي هي الذهب والفضة بمقدار ٢.٥ من كل مائة، ومن أموال تجارتهم ومنها ما يمرون به على العاشر يؤخذ بمقدار ٢.٥ من كل مائة، وما يؤخذ من محصولاتهم الزراعية وهي أعشار الأرض، ومصارف الزكاة تصرف بالنصف إلى ثمان أصناف من الناس (الخصيري: ١٨٧٢، ١٧٨ - ١٧٩). في قوله تعالى (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (التوبة: ٦٠). الموارد المالية الخاصة بالمجتمع البغدادي يعتبر العمل في الإسلام قضية دينية بقدر ما هو قضية دنيوية. وانطلاقاً من الآيات العديدة التي أشار فيها القرآن إلى هذا الموضوع، تنبه رجال الدين والفقهاء لتوضيح موقف الدين من العمل في العصر العباسي. ولعل أول من تصدى لذلك بالشرح والتفصيل، كان محمد بن الحسن الفهاني (ت ١٨٩ هـ) في كتابه «الاكتساب في الرزق المستطاب»، والذي وصل إلينا بتلخيص تلميذه محمد بن ساعة.

الصناعة في بغداد قامت في بغداد صناعات وحرف أمنت السلع الاستهلاكية وبعض الخدمات للسكان. إلا أن ازدهار الصناعة ارتبط دائماً بتلبية حاجات القصر والحاشية، وحاجات الإدارة.

- صناعة المنسوجات: تعتبر الحياكة من أقدم الصناعات اليدوية، نظراً لحاجة الإنسان إلى الملابس لحماية جسمه من تقلبات الطقس، ولتلبية نزوع المترفين إلى تامين زينتهم وأثاث منازلهم، من ستائر وغطاء وغارق ووسائد وبسط وطنافس. (الانزي: ١٩٠٢، ٣٦)

المنسوجات البغدادية كانت بغداد تصنع المنسوجات الحريرية المتنوعة الألوان، والأقمشة القطنية، والعمائم الرقيقة، والمناديل القصرية والبريبية. كما كانت تمنع فيها الحلل والسقلاطونيات والعتابيات (الدمشقي: ١٩٧٣، ٢٦)، واشتهرت بغداد أيضاً بالطرائف واللوان ثياب القز والمحكم، وكانت تنتج ازراً وعمائم يكانكي رفيعة، وكانت الملابس التستريه تتسج في محلة التستريين، كما اشتهرت بغداد أيضاً بصناعة الوبر (المقدسي: ١٩٩١، ١٢٨). كانت القلاص تصنع في الجانب الشرقي وعرفت ب الرصافي (الطبري: ١٩٧٠، ١٥٤). وينوه صاحب (حدود العالم)، بقطنيات بغداد ومنسوجاتها الحريرية وإبريمها (سعيد: ١٩٩١، ١٨٧)، وخص الحرير بوظيفة صاحب الحرير (البغدادي: ٢٠٠١، ١٩٣). ولا بد أن منسوجات بغداد كانت في غاية الشهرة حتى أن صناعات المنسوجات خارج بغداد كانوا يضعون اسم بغداد على اقمشتهم (زيادة: ١٩٩٥، ٢٥٦).

الصناعات المعدنية

كان للسيف بين الأسلحة القديمة أهمية خاصة عند العرب. وكان بعض الجند لا يكتفي بسيف واحد، وقد بالغ بعضهم ورغب في أن يكون لكل محارب سيفان (عون: ١٩٦١، ١٤٨). وقد كانت بغداد من مراكز صناعة السيوف حيث بطبع في محلة (باب الطاق)، كما كان في بغداد سوق معروفة بسوق السلاح التي يشترى منها الجنود اسلحتهم (القرطبي: ١٨٩٧، ٣٥). وكانت تصنع في بغداد الأسلحة المتنوعة الأخرى، كما نصنع فيها الأدوات المنزلية المعدنية، والأبواب النحاسية. وقد استخدم الصناع النحاس، والصفرة، والبرونز، والفولاذ، والحديد، لصنع الأدوات المختلفة. وكان في بغداد سوق للصفارين (الدوري: ١٩٩٩، ١١٠).

النجارة و مواد البناء

شكل الخشب مادة أساسية في البيت البغدادي، وكان النجارون يجهزون أثاث المنازل، من كراس ومناضد وخزائن، وكانت سقوف البيوت تصنع من الخشب والقصب. وكان خشب الساج قد استعمل في بناء مسجد المنصور (الآغاني: ١٩١٦، ٣٥٢ - ٣٥٣). دخل القصب والرصاص والأجر في مواد البناء. وذكر إسحق بن سويد أن المساجد كانت تبني بالقصب ثم بالرصاص، ثم باللبن والطين، ثم بالأجر والجص (ابن الفقيه: ١٩٩٦، ١٥٦). وقد اشتهر في بغداد سوق خاص عرف بدرب الأجر، على نهر طابق (البغدادي: ٢٠٠١، ١٩٣)، كما كان في الدسكرة اعمال بغداد خان عرف بخان الأجر (الهمداني: ١٩٩٣، ١٥٨).

صناعة السفن

تعتبر صناعة السفن من اهم الصناعات الخشبية. وكان الساج هو الخشب المفضل الذي تصنع منه السفن، وكان يستورد منذ أقدم الأزمان من الهند إلى الخليج العربي (حوراني: ١٩٥١، ١٥٦). وقد فرضت الحاجة إلى استهلاك الأخشاب طلباً قويا عليها، فنشطت حركة استيراد الأخشاب من المناطق الحرجية البعيدة بنسبة أو باخرى، فكان خشب ارمينيا ينحدر في دجلة معوما حتى يصل إلى بغداد (سعيد: ١٩٩٣، ١٩). وكان خشب الساج البناء السفن في ميناء عيذاب يجلب من الهند واليمن. فيصل إلى موانئ الخليج العربي ثم يمر منها إلى بغداد (ابن جبیر: ١٨٤٦، ٤٧). ونقل العرب شجر النارجيل (جوز الهند) إلى بلادهم، وقد لاحظ ناصر خسرو كثرة أشجاره في عمان (سعيد: ١٩٩٢، ١٩٥)، وشاهد ابن بطوطة في القرن السابع اشجار النارجيل تنبت في ظفار (ابن بطوطة، عبد المنعم: ١٩٨٧، ١٧٥). ونشأ في بغداد اول عهدا (دار صناعة للجسر) (البيقوبي: ١٩٦٤، ٢٤٩)، وهي مؤسسة حكومية هدفها تأمين صيانة دائمة للفن التي قامت عليها جسور بغداد.

صناعة الأحذية والدباغة

تحفل التقاليد العربية باهتمام خاص بالأحذية، قال الجاحظ: (والعرب تلهج بذكر النعال والفرس تلهج بذكر الخفاف. وذم رجل شخصاً فقال: رأيتُه مشحم النعل، درن الجورب، مغضن الخف، دفيق الجريان) (الجاحظ: ١٤٢٣، ١٠٦). وكان من المستهجن أن يكون أحد بغير حذاء، وكان المنصور بمنع الشعراء من الوقوف بين يديه إلا بخفين دمالقين (الصولي: ١٩٣٤، ٤).

صناعات أخرى

انتشرت في بغداد صناعة المرديات والمعجنات والحلويات كما انتشرت صناعة العقاقير والأدوية. فذكر يونس الصيدلاني انه أحصي ما عمل فن العقاقير النباتية على سواقي الأنهار بادوريا عشرات الأنواع من الأعشاب التي تدخل في صناعة الأدوية (ابن الفقيه: ١٩٩٦، ١٥٦).

وأقيمت في بغداد مصانع اللورق بعد أن أخذت المهنة عن الصين (ابن خلدون، الدرويش: ٢٠٠٤، ٣٦٠)، وقيل: إن الفضل بن مجي البرمكي أنشا صناعة الكاغد في بغداد، على غرار ما راي في سمرقند(الحاجري: ١٩٦٥، ١٣٣)، وحاول المعتمصم تقليد صناعة القرطاس البغدادي، إلا أنها جاءت أقل جودة(ابن الفقيه: ١٩٩٦، ١٥٦)، وعالج الجاحظ الكتابة على الجلود والادم والكاغد، وفضل الكتابة على الورق القطني، لسلاسة الكتابة عليه(هارون: ١٩٩٦، ١٩٩٦). وذكر ياقوت الحموي، أن صناعة الورق في بغداد كانت تجري في دار القز(الحموي: ١٩٩٥، ٤٢٢)، حيث تنتشر صناعة المنسوجات في محلات دار القز والعنابيين والتصرية وشهار سوق.

الملاحون

انتشرت بغداد على ضفتي دجلة والصرة، وكان من الضروري قيام شبكة واسعة من النقل النهري، تؤمن نقل الناس بين جاني المدينة، ووجدت لذلك مشروعات خاصة، تتطرق منها او ترسو فيها المراكب العاملة(ابن الجوزي: ١٩٢٣، ٢٧). وكانت المراكب تنقل المنتزهين داخل بغداد، أو ننقلهم إلى الضواحي، حيث يقضون إجازاتهم في بساتينها، وحيث يمضي الملاحون أوقاتهم في حاناتها، فمنهم من يخرج بالطيارات، ومنهم بالزباب والسمريرات، كل إنسان بحسب قدرته(ابن الجوزي: ١٩٩٢، ٢٧).

وكان للملاحين رئيس يوجههم، كما كان لهم شيخ يعرفون به، وكان الخصيان يستخدمون في حراقات النساء(ازدي: ١٩١٧، ١٠٨). وكان في بغداد أماكن لإصلاح السفن، وعرفت المدينة منذ نشأتها « دار صناعة للجسرا مهمتها تأمين صيانة وتجهيز جسور العاصمة(اليقوي: ١٩٦٤، ٢٤٩).

وتترك المصادر انطبعا بأن الملاحين كانوا يملأون دجلة بالاغاني والصراخ(ابن الجوزي: ١٩٩٢، ٢٧) ويروي أبو الفرج الأصفهاني أن الرشيد كان يعجبه غناء الملاحين في الزلاجات إذا ركبها، إلا أنه كان يتأني بفساد كلامهم الذي يغنونه، فأمر بأن ينظم هم الشعراء شعرا يغنون فيه(الاصفهاني: ١٩٧٢، ١٧٧).

عمال الغزل والنسيج

استقطبت صناعة المنسوجات عددا كبيرا من الحرفيين، ونشأت حول هاتين الحرفين حرف اخرى، كالتطريز والندف والصباغة والقصارة. كان الموقف التقليدي من الحياكة يعتبرها من المهن المزرية. وقيل في الحركة الكثير من الأقوال التي تصنفهم في الساقطين والحمقى (الراغب: ١٩٨٧، ٤٦٠). قال الجاحظ: ولم نر أعسر الأ حائك او ساقط ندلا (الجاحظ: ١٤١٠، ٣٥٠). واعتبر أبو المطهر الأزدي ناسج البرد من ذوي المذلة، ومن الأمثال في الحاكة: إذا شبع الحايك سمي ابنته ملكة، وأطلقت اسماء أدوات النسيج على من يريدون إهانتته، فوصف بأنه كدين القصار، أو زنبيل القماش او لبود اليهود(ازدي: ١٩١٧، ٧٤).

الحدائون

نزل الحدائون في سوق خاصة بهم في الكرخ، وكان في باب الجسر درب خاص بباعة الأحفان(البغدادي: ٤٦٣هـ، ١١). وكان مصلحو الاحذية يتجولون في المحلات والدروب وينادون: (شراك نعال). وكان منهم من يقوم بتصليح الأحذية في دكانه، حتى وصف بيت، الإسكاف بأن فيه من كل جلد رقعة، ومن كل آدم قطعة، وقيل: هم كبير كبيت الأدم(الحموي: ١٩٩٥، ٣٠٤).

وقد تطلى وجوه الجلود التي تلي اللحم بالكلس وتعمل ثم تمرط، ولا يفعل ذلك بجلود البقر، لأن الكلس يفسدها، لذا كانت تمرط بالغلقة أو بلبن العشر، بعد أن تؤخذ قضبانه رطبة، ويترك لبنها التجمع بالأواني، وإن لم يجد الدباغون غلقة أو لبنا حلقت الجلود بالشفار(الحموي: ١٩٩٥، ٣٠٤). باعة الأطعمة

مع نمو طبقة أصناف الحرف، ظهرت جماعة واسعة من باعة الطعام، يقدمونه لأصحاب الحوانيت في أوقات الصباح الباكر، أو للذين يبقون في حوانيتهم ظهرا، إذ كان الكثير من المهنيين يخرجون من منازلهم في الصباح، ولا يعودون إلا في المساء، ولا يتناولون طعام الغداء في بيوتهم إلا يوم الجمعة (التنوشي: ١٩٩١، ١١٢).

ولدينا رأيان متباينان حول طعام السوق. فمنهم من كان يعيبها(الاصفهاني: ١٩٧٢، ٣٨)، بينما اعتبره ابو الفتح الاسكندري أفضل من طعام البيوت(الهمداني: ١٩٩٣، ٦٠).

باعة الهريسة

انتشر الهراسون الذين كانوا يطبخون هريستهم باكرا، ويقصدها الزبائن عند خروجهم للصلاة الأولى. وكانت الهريسة من الأطعمة المرغوبة، إلا أنها من أطعمة الشتاء على الأخص، وكانت سيدات البيوت تشتري الهريسة من السوق لتقدمها على موائد(البغدادي: ٢٠٠١، ١٧٨).

ويذكر ايضا أن للهراسين في بغداد مواضع فوق دكاكينهم، فيها الحصر والموائد وخدام وطشوت وأباريق وأشنان، فإذا انحدر الرجل دفع دانقا (المقدسي): (١٢٩, ١٩٠٣).

باعة اللحوم

انتشر القصابون في بغداد، ولم يكونوا محظون بتقدير المجتمع. فقد وصفهم المنصور بأنهم سفهاء وفي أيديهم الحديد القاطع، كما وصفوا بالغش والنتانة (البغدادي: ٢٠٠١, ٨٠). وكانوا يعلقون اللحوم في حوانيتهم وينادون عليها، ويرغبون في سمنتها

وكان لحن القصابين في حديثهم موضع سخرية الناس، مما يثير حنقهم ويروي أبو زيد النحوي حادثه تدل على سفاهتهم وضيقهم بالزبائن (البغدادي: ٢٠٠١, ٨٠).

الشواءون والرواسون

قامت في بغداد مهنة الشوائين الذين يقدمون الشواء للزبائن، ووصف لنا بديع الزمان شواء بغداديا، وهو يقص اللحم ويضعه في التور فوق النار، ثم يرش عليه السماق ويقدمه للزبون مغلفة برقاق الخبز (الهمداني: ١٩٩٣, ٦١).

وكان الرواسون (باعة الرؤوس) يجتمعون في درب خاص بهم « درب الرواسين عند باب الشام في الجانب الغربي (البغدادي: ٤٦٣ هـ, ٨٠). باعة الأسماك والطيور

تجمع السماكون، في محلة خاصة عرفت بقنطرة السماكين، حيث كانوا يقدمون السمك طازجة أو مشوية أو مقلية (البغدادي: ٤٦٣ هـ, ٨٠). ويبدو انهم كانوا يستوردون الأسماك ويخزنونها خوفا عليها من الفساد. وفرض المحتسب على السماكين نظافة اسماكهم لئلا تنتن، وأمر الشوائين منهم بأن يكون إعداده أمام زبائنهم (ابن الاخوه: ١٩٩٨, ١١١).

قامت في بغداد سوق للدواجن في درب الدجاج (البغدادي: ٢٠٠١, ٨٠)، وكان من باعة الدجاج من يبيعها للطبخ، ومنهم من يتخذها للبيض والغلة. وكان في بغداد محلات متخصصة الطيور التي تتخذ للزينة في المنازل (الجاحظ: ٢٠٠٣, ٢٣٢).

الخبازون

قامت في بغداد مخابز كان سكان البيوت يرسلون إليها بعجينهم (ابن الجوزي: ١٩٩٢, ٦١)، ويبدو ان المخابز توزعت في الأحياء، وشكل دخانها إزعاجا للناس. ولاحظ عبد الله بن طاهر ان جيرانه يخبزون ويتصاعد من وقودهم دخان كثيف. وكان الشاعر المعروف بالخبز ارزي يتعاطي خبز الأرز على الطابق الذي يشعل تحته سعف النخل. وكان الخبز يباع في الدكاكين، وفي سوق خاصة عرفت بالخبازين (البغدادي: ٢٠٠١, ٤٨٦).

التمارون

قامت في بغداد سوق خاصة يتجمع فيها التمارون الذين يتجرون بالتمر، وقد أصيبت التمر بكارثة سنة ٣٧٢ هـ حتى اضطر التهارون إلى الاستلاف (ابو الشجاع: ١٩١٦, ٦٧). ويبدو أن سوق التمارين كانت رائجة، حتى فرضت عليها الضرائب (الصولي: ١٩٣٥, ٢٢٩)، وربما كان بعضهم ميسورة، فقد خصص أحد التمارين لاعى خمسة دراهم شهريا، إلا أن كثيرون منهم كانوا من ذوي البيوع الصغيرة، يحمل الواحد منهم تمره ويتجول في الشوارع مناديا، ومنهم من يجلس في الشارع يبيع تمره وقد وضعه على منسف (الحموي: ١٩٩٥, ٣٠٤).

البقالون

انتشر البقالون في بغداد في حوانيتهم الصغيرة، وعند إخراج الأسواق من مدينة المنصور إلى الكرخ، ابقى الخليفة على بقال في كل ربع من أرباع المدينة، على ألا يبيع إلا الخل والبقل وحده. وقام البقالون في محلات بغداد بالقرب من منازل الناس، ومنهم من كان يتجول بين الأحياء لبيع سلعته (الطبري: ١٩٧٠, ١٥٤). وكان البقالون من أصحاب البيوعات اليسيرة فقد تجادل أحد البقالين مع احد الأغنياء فقال له: أنت رب مائة الف دينار، وأنا بقال لا أملك مائة فلس، وإنما أعيش بكدي (الجاحظ: ٢٠٠٣, ٢٣٢)، واشتهر عن البقالين سفاهة الفاظهم (البغدادي: ٢٠٠١, ١٦١).

باعة السويق

انتشر باعة السويق في بغداد، وعرف في المدينة مسجد باسمهم (البغدادي: ٢٠٠١, ٢٨٠)، وكان السويق يباع في بغداد بكميات كبيرة. وذكر احد باعة سويق الحمص في حدود سنة ٤٥ فيه أنه أحصى ما يتخذ في سوقه من سويق الحمص في كل سنة، فكان مبلغه مائة واربعين كرا تباع جميعها، وهذا السويق لا يأكله إلا الفقراء والمرضى الذين كان يوصف هم (البغدادي: ٢٠٠١, ٤١١). وكان سويق اللوز يمزج بالسكر والعسل وهو من أنواع السويق المرغوبة في فصل الخريف، بعد أن يضاف إليها الثلج (البغدادي: ٢٠٠١, ٩).

كانت الباقلاء تباع في بغداد بكثرة، وكانت قدور باعتها تظهر للعيان على أبواب حوانيتهم، وكان الفقراء من الناس يرسلون بصحونهم الفارغة إلى الباقلاني ليملاها ومنهم من يكتفي بماء الباقلاء يبل به كسرات الخبز (البغدادي: ٤٦٣ هـ، ٤٠٨).

الحلوانيون وأصحاب المطاعم

اشتهرت في بغداد دار البطيخ التي كانت تباع فيها الفواكه والرياحين (الثعالبي: ١٩٨٥، ٣٠٩)، كما اشتهرت بغداد بصناعة الحلوى، وعرفت منها الأنواع العديدة (ازدي: ١٩١٧، ٤٤).

واشتهر من الباعة والصناع في بغداد في القرن الرابع نجاح الأسود الذي يعمل خلال السلطاني المقطوم. وكانت المخلاتات معروفة لدي البغداديين، إذ كانوا يتناولونها بعد الطعام لتفسل الزفر والدهن (ازدي: ١٩١٧، ٤١).

واشتهر شركة العطار « ببيع المحلب، واشتهر من باعة الأطعمة والأشربة (قيراط الذي يبيع الشواء، و حبش، بائع القطائف، وعمر، بائع الفالودج، كما اشتهر منهم زريق، بائع الفقاع، و « ابن سيرين » بائع المخلط، وكيك، البقال في الكرخ، الذي يبيع الجبن والزيتون.

السقاءون والثلاجون

كان من الطبيعي في مدينة بضعامة بغداد ان ينتشر فيها السقائون، يبيعون الماء المبرد بالحباب او بالثلج من الحرفيين والتجار والمتسوقين (التتوخي: ١٩٩١، ١٨١)، وكان في بغداد مشرعة تعرف بمشرفة الروابا، يأتيها السقائون ويملاون جرارهم منها (البغدادي: ٤٦٣ هـ، ١١٦). وكان المحبون بوصون موظفيهم بمراقبة السقائين وجرارهم ونظافة مياههم (ابن بسام، ١٩٨١، ٢٦).

استخدم السقاءون البغال في حمل قريهم وجرارهم إلى الزبائن، أو إلى بيوتهم أو بيوت أسيادهم (التتوخي: ١٣٩١، ٣٥٣)، ودخل السقائون ارباب مهنة إلى بيوت القادرين، الذين كانوا يسعون لشراء الغليان وتشغيلهم سقائين؛ ولعل هؤلاء كانوا يتمتعون بشروط خاصة (التوحيدي، ٢٠٠٢، ٥٥٤). ويبدو أن سقائي بغداد كانوا محمودي السيرة. فقد وصف ذو النون المصري سقاء المدينة بالمروءة والظرف، وذكر أن أحد سفائياها رفض ديناراً دفعه إليه ذو النون حين كان أسيراً في بغداد (البغدادي: ٢٠٠١، ٥٠).

الثلاجون

لجأ البغداديون إلى تبريد المياه بواسطة الحباب والكيزان، الا انهم كانوا يعدلون إلى استعمال الثلج ليحصلوا على فاعلية أكثر، ومنذ نهاية القرن الثاني عرفت بغداد محلة أصحاب الثلج، او « درب الثلج، حيث يكسونه ويبيعونه (الحموي: ١٩٩٥، ٧٥).

وقد أورد ابن الجوزي في أخبار سنة ٣٢ فيه أنه تساقط ببغداد ثلج كثير فجمعه الثلاجون وكبسوه. وذكر أيضا أن أبا سليمان العلاج ادعى أنه باع أربعة أرطال ثلجاً من عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ليعالج بها هذا جارية غالية عليه، في وقت عز في الثلج ببغداد، ودفع إلى الثلج خمسين الف درهم، منها عشرون ألف درهم ثمن الرطل الأخير، وعشرة آلاف لكل رطل من الثلاثة الأولى (ابن الجوزي: ١٩٩٢، ٣٣٦).

الحمامون والنقادون والمزنيون

ترك التراث العربي في أذهاننا صورة عن الحمام الفضولي، ويرتبط فضول الحمامين بفقيرهم فقد طلب عيسى بن هشام حجماً خفيف اليد، حديد الموسي، نظيف الثياب، قليل الفضول؛ ولعله كان يطلب أمراً صعباً، وتوهم انه وفق بحمام ارتاح إليه، رجل لطيف البنية، مليح الحلية في صورة الدمية، ولكنه لم يلبث أن اكتشف فيه فضولاً عبر عنه بسلسلة من الأسئلة منه هذياناً بوابل من الآراء اللغوية والفلسفية (الراغب: ٢٠٠٣، ٤٦٢).

كان العبيد وأهل الذمة يمارسون مهنة الحمامة، ويتحدث التتوخي عن رومي مزين. وكان في دار ابن الجصاص خصيان بيض مزنيون، وكان ابن ابرونا في اول حياته بحجم ويفصد على الطريق (التتوخي: ١٩٩٨، ٢٩٦).

وكان الحمام يجلس على الطريق في شوارع بغداد، ويضع حاجه أمامه، أما من يتعاطى قص الشعر، فكان يحمل منديلاً ويضعه على عنق الزبون (البغدادي: ٢٠٠١، ٢٥٨).

أما الفصد، وهو إخراج الدم من العروق، فيخلص الجسم من الدم الفاسد، او الوسخ، ويفيد في معالجة أمراض العينين والرأس والوجه والأضراس. ومن شروط القصد، أن بقطر على العروق شيء من الدهن، ثم تكميد مرفع الفصد بالماء الحار ليظهر الدم، وخاصة في الشتاء. وينصح المفصد باجتتاب النساء قبل اثنتي عشرة ساعة.

كان الفصادون يمارسون مهتهم في الشارع، ينتظرون زبائنهم، ومنهم من يفصد أصحاب الدكاكين فيعالجهم (الحموي: ١٩٩٥، ١٤٣). بينها تقصد النساء زبائنهن في البيوت، وربما تعاطت الفصل القابات (ابن الجوزي: ١٩٢٣، ١٥٤).

انتشر في بغداد أصحاب حرف أخرى، منهم الخواصون الذين بنطون الهرم ريسفونه، ويستعرن منهم القفاف والصحافة. وكان في بغداد العطارون والصيدالة الذين يعالجون مختلف أنواع الأعشاب (البغدادي: ٢٠٠١، ٧٤). وشاركت النساء في أعمال الطب والتجميل، واشتهرت منين جمرة العطار (الطبري: ١٩٧٠، ١٠٤). وكان لباعة الحناء والخضاب سوق خاص يجري فيه الخضاب (البغدادي: ٢٠٠١، ٤١٧). وكان الصاغة يعالجون المعادن والأحجار في دكاكينهم المجهزة بالكيرفي سوق خاصة، ويتحدث الخطيب البغدادي عن محل كبير يضم عدة عمال المناعة الإبر (البغدادي: ٢٠٠١، ٤٦٢).

المورد الثاني: أهمية نهر دجلة في تعزيز الجانب الاقتصادي ودور التجارة والزراعة

لما تولى الخلافة أبو جعفر المنصور عام ١٣٦هـ عمل على تأسيس عاصمة جديدة لدولته، فخرج يرتاد له موزها، وجاء اختباره ببناء عاصمته بغداد عام ١٤٥ هـ ٧٩٢ م على ضفاف نهر دجلة (البغدادي: ١٩٧٠، ٦٦)، الذي يعد الذراع الثاني للخليج الفارسي داخل أرض الهلال الخصيب. وكان الخليفة أبو جعفر المنصور مسرورا لاكتشافه هذا الموقع الإستراتيجي البغدادي. ويذكر لنا اليعقوبي ما قاله المنصور في هذا الصدد: " بأنها مشرعة للدنيا، كل ما يأتي في دجلة من واسط والبصرة والأبلة والأهواز وفارس وعمان واليمامة والبحرين، وما يتصل بذلك فاليها ترقى وبها ترسي... فالحمد لله الذي ذخرها لي وأغفل عنها كل من تقدمني (اليعقوبي: ١٩٦٤، ٢٣٨). وقال أبو جعفر أيضا: " هذه رحلة ليس بيننا وبين الصين شيء يأتيها فيها كل ما في البحر (الطبري: ١٩٧٠، ٦١٤).

ولقد كان لكل من دجلة والفرات أنهار عديدة تتفرع منهما، وأنهار أخرى نصب فيها فأصبح بالإمكان تنظيم الملاحة فيهما مما يعطي للسفن حرية الانتقال من مكان الآخر، وتجد أن توزيع هذه الأنهار الفرعية كان بشكل يساعد على ربط بغداد بطريق تجارة الخليج الفارسي البحرية من الشمال إلى الجنوب، وأبرز هذه القنوات البحرية بين دجلة والفرات نهر عيسى ونهر صرصر (المقدسي: ١٩٠٣، ٩٢). وكذلك وصفها اليعقوبي بقوله: " وأثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم فليس من أهل بلد إلا ولهم فيها محلة ومتجر، ومتصرف، فاجتمع بها ما ليس في مدينة بالدنيا " (اليعقوبي: ١٤٢٢، ٧). إذا وأصبح التجار يقصدونها من آفاق بعيدة للحصول على السلع المتنوعة مما جعل أسواق بغداد تعج بالحركة التجارية.

الأبلة

تقع الأبلة في نهاية الرأس الجنوبي لنهري دجلة والفرات وعلى زاوية الخليج الفارسي بالقرب من البصرة على نهر الأبلة الذي عرف باسمها والذي كان مزدحما بحركة السفن المليئة بالسلع والبضائع المختلفة (اليعقوبي: ١٤٢٢، ٧). يرجع تاريخها الملاحي لعهد الإسكندر الأكبر (الحموي: ١٩٩٥، ٩٧). وقد عرفت قديما بأنها مستودع تجارات الشرق (الالوسي: ١٩٨٤، ٦١). وتمتعت بدور الوسيط في التجارة البحرية مع الشرق. ولقد كان لانتقال مركز الخلافة العباسية إلى بغداد دور في زيادة الاهتمام بالأبلة. حيث كان قريبا من بغداد وقابلية مينائها استيعاب السفن البحرية ساعدها، لتكون نقطة الاتصال البحري بين عدة مناطق مختلفة حتى وصفت بأنها: " مرفأ سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين " (الدينوري: ١٩٦٠، ١١٧).

البصرة

أنشئت البصرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب عام ١٦ هـ / ٦٣٧ م على ساحل نهر دجلة في الطرف الشمالي من الخليج العربي، وقد صارت زمن العباسيين تمثل نقطة التقاء الطريق الممتدة من وسط بلاد فارس والعراق والشام والجزيرة العربية عبر الخليج العربي، ومركز إبحار واستقبال السفن المحملة بأنواع السلع والبضائع الخاصة بالتجارة الشرقية في الخليج (شاكر: ٢٠٠٥، ١٥١).

جهود العباسيين في حماية الملاحة

أولت الحكومة العباسية جانبا كبيرا من اهتمامها بالطرق التجارية، فعملت على حمايتها وتنظيمها لتسهيل سبل التجارة، كما عملت على توفير السفن وصيانتها وتوفير الأمن وتأمين العمليات التجارية.

فمن جهود الحكومة العباسية ما قاموا به من وضع علامات من الخشب - المنار - في المناطق الشمالية من الخليج العربي وخاصة عند ميناء الأبلة والبصرة التي تميزت بضخامة المياه بسبب كثرة الرواسب التي تتراكم بشكل خاص أمام الموانئ الهامة. ومراكز انطلاق الرحلات البحرية، وذلك

لإرشاد السفن، وإبعادها عن الأماكن الضحلة لأن السفينة إذا ضلت الاهتداء بالخشبات، ولم تستطع أن تتبين معالم الطريق ارتطم قاعها بالأرض فتكسرت وتلفت وذلك بسبب رقة المياه عند الشاطئ (المسري: ١٩٨٢، ٢٢٦).

دور الزراعة

ان من الاسباب الرئيسية والمهمة للأستيطان وجذب السكان هو توفير الغذاء والزراعة هي المصدر الرئيسي للغذاء اما بغداد فقد كانت منطقة زراعية من الدرجة الاولى فاحتوائها على نهري دجلة والفرات ساعدها على ازدهار هذا المجال مما ادى الى جلب التجار من مختلف البلدان وجلب السكان للسكن في هذه المدينة كذلك تعد من العوامل والاسباب الاقتصادية المهمة التي جعلت المنصور اختيارها عاصمة له.

أقيمت بغداد في منطقة توفرت فيها أساليب زراعية قديمة، تأكدت أهميتها بعد ظهور عاملي الحرفة والتجارة، واشتركت هذه النشاطات جميعا في زيادة مصادر الثروة، وتحديد طبيعة نمو المدنية السريع، فجعلت من المدينة راس لجسم ريفي مجاور، وقامت علاقة وثيقة بين السواد، وبين بغداد، فكان رخاء أحدهما عاملا في رخاء الآخر. فالمنتجات الزراعية التي كانت تسد الحاجات التموينية لسكان المدينة كانت تسهم أيضا في تنمية عائدات الضريبة وفي زيادة إثراء السكان وملاكي الأراضي (حمدان: ٢٠٠١، ٣٢٥).

الإصلاحات الزراعية

لقد أيقن العباسيون خلال عصرهم الأول - بالخصوص - أهمية الإصلاح الزراعي لكونه دعامة الإنتاج، والمجال الذي يشغل العدد الكبير من اليد العاملة، ولكون الفروض على نتاجها من زكاة وخراج تشكل الجزء الأكبر والرئيسي من موارد الدولة المالية، فضلا عن أن الزراعة في المهنة التي أقدم عليها المسلمون عند ما استقروا بالبلاد المفتوحة، ولم يأنفوا منها بخلاف نظرتهم للأنشطة الاقتصادية الأخرى، كما أن اقتناء الضياع والمزارع والبساتين كان مظهرا للثراء والجاه، وقد عبر عن ذلك بحق الخليفة المعتمد (٢١٨-٢٢٧ هـ / ٨٣٣-٨٤٢م) عند وصفه لأهمية الزراعة بالنسبة للدولة العباسية بقوله: « إن فيها أمورا محمودة، فأولها عمران الأرض التي يحيي بها العالم، وعليها يزكو الخراج، وتكثر الأموال، وتعيش البهائم، وترخص الأسعار، ويكثر الكسب، ويتسع المعاش .. » وهذه الأهمية التي أولاهها خلفاء العصر العباسي الأول للزراعة، تبلورت في العديد من المبادرات الإصلاحية و تمحورت في ميادين أساسية.

١- اصلاح نظم ملكية الأرض الزراعية تعد الأرض الزراعية أهم عناصر الإنتاج على مدى التاريخ، ويؤثر نظام ملكيتها تأثيرا بالغا في حياة الأفراد، وفي تحديد مسار اقتصاد الدولة، ولذلك كان الوضع القائم عند قيام الدولة العباسية يتمثل في وجود أرض مملوكة للأفراد و أرض مملوكة للدولة، و أرض أوقافة موقوفة الأغراض معينة.

٢- اصلاح و تطوير أنظمة الري: لقد ساهمت مصادر الري في مختلف مناطق الدولة العباسية و نظم ضبطها، ومدى تخصيص الموارد المالية الكافية للإنفاق عليها في حفظ التوازن بين السكان و حاجتهم إلى الطعام، وقد عرفت قوة وعزة الدولة العباسية بمدى قدرتها على تخصيص الموارد المالية اللازمة، للإنفاق على مشروعات الري و صيانة مصادر المياه .

و إذا كان ماء الفرات لا يكفي لري أرض السواد، فقد عمل أبو جعفر المنصور على تنظيم وسائل الري مثل النواعير والدواليب، والتي كانت تصنع من الخشب وتوضع على الأنهار، وتسيرها الثيران، وتراعي فيها حركة المياه، وذلك بعد شق الكثير من الجداول و الترغ (قنوات) (المادري: ١٩٢٧، ٢٣٠).

أهم الأساليب الفنية في الزراعة

هناك عدة أساليب استخدمت في العصر العباسي في المجال الزراعي وكلها أدت الى زيادة انتاجية الأرض الزراعية ومن أهم هذه الأساليب ما يلي:

أ- التسميد: من أساليب تطور الفن الزراعي في العصر العباسي العمل، و استخدمه الفلاح في تلك الفترة من أساليب الخصوبة الأرض وتقويتها، وقد عرف الفلاح في العصر العباسي الأول أنواعا كثيرة من السماد فعرف الجيد منه والرديئ.

ب- عدم تقارب المغروسات: ومن أساليب تطور الفن الانتاج الزراعي، أنهم كانوا يحرسون في فلاحتهم للأرض على عدم التقريب بين المغروسات مع بعضها البعض حتى لا تضعف الشجرة ويقل انتاجها بعد ذلك (ابن بصال: ١٨٩٧، ٦٠).

ج- التكبيس (التقيد)

د- التركيب (التطعيم)

مصادر المياه

اعتمدت الدولة العباسية في زراعتها على مصادر مختلفة من المياه ولعل من أهمها ما يلي (علي: ٢٠٠١، ١٥):

١ - مياه الأمطار

٢ - مياه الانهار

٣ - مياه الابار والعيون

أهم أدوات الزراعة والري

استخدم الفلاح الكثير من أدوات الزراعة والري ومن أهمها:

١ - المحراث الخشبي

٢ - المجرفة

٣ - الوتد

٤ - المنجل أو المحصد

٥ - الجاروف

أهم الحاصلات الزراعية

ازدهرت الزراعة ازدهار عظيمًا، كما تنوعت المحاصيل الزراعية وذلك لأن الدولة العباسية كانت مترامية الأطراف.

أهم هذه المحاصيل الزراعية:

١ - الحبوب والمنتجات الزراعية: عرفت الدولة العباسية أنواعا كثيرة من الحبوب وفي مقدمتها القمح وذلك لاعتماد الناس عليه في صناعة الخبز، فقد كان يخبز أرغفة رقيقة ومستديرة (ميتز: ١٩٦٧, ٣٠٢).

الحبوب الأخرى: يلي القمح في المرتبة الشعير من حيث أهميته الغذائية ذلك لأنه ارخص ثمنًا، كما كان أكثر استعمالًا في الأكل، ومنه كان يخبز أكثر الناس (علي: ٢٠٠١, ١٥)، كذلك من الحبوب الشائعة الاستخدام في ذلك الوقت الذرة وبصفة خاصة في الأجزاء الجافة من الدولة العباسية، وذلك لأنها لا تحتاج الى مياه كثيرة (ميتز: ١٩٦٧, ٣٠٢).

الدور التجاري

حظيت التجارة في العراق في العصر العباسي بجانب كبير من الاهتمام في المصادر العربية القديمة، ولعل ذلك ناتج عن ازدهار الحركة التجارية في ذلك العصر، وما رافقها من تطور سريع في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، ونستدل من كتابات الله - القدامى على دور الحضاري الكبير الذي كان للتجارة في ذلك الوقت، ولا نغالي إذا قلنا أن ارتباط العالم في العصور الوسطى كان يورى بالدرجة الأولى إلى عامل التجارة.

ويعود رقي وازدهار التجارة في العراق في العصر العباسي إلى عدة أمور منها موقع العراق الجغرافي، فهو نقطة الاتصال بين أواسط آسيا والهند والصين من ناحية ومن الجزيرة العربية والشام ومصر وشمال أفريقيا والغرب من ناحية أخرى، فبعد استتباب الأمن وأنهاء الفتوحات الإسلامية، أصبحت الظروف مواتية لأن يعدل أهل العراق دور الوسطاء في التجارة بين الشرق والغرب. أما الأمر الثاني الذي ساعد على نمو التجارة في العراق، فهو تشجيع الدولة بشكل مباشر أو غير مباشر للتجارة، إذ كانت حاجة الخلفاء وكبار رجال الدولة تزداد يوم بعد يوم للسلع الأجنبية، فزاد طلبهم عليها، مما ساعد ذلك على إنعاش طبقة التجار وهو انها الفاحش، فقد كان التجار يعفون في بعض الأحيان من الضرائب تظهر إحضار بعض السلع التي يرغب فيها الخلفاء.

الطرق التجارية

تقسم الطرق التجارية إلى قسمين أ - الطرق التجارية البرية. ب - الطرق التجارية البحرية.

اولا: الطرق التجارية البرية:

(١) الطرق التجارية البرية الداخلية:

كانت معظم طرق المواصلات البرية داخل العراق تسير مجانية لضفاف الأنهار؛ وذلك لسهولة التزويد بمياه الأنهار عند الضرورة بدلا من التعرض للعطش في حالة تعذر وجود آبار في الطرق الداخلية، ومن الجدير بالذكر أن المواصلات داخل العراق كانت ميسورة سهلة بوجه عام. وكانت بغداد تمثل مفترق الطرق البرية نظرا لاستواء سطح البلاد (الدوري: ١٩٩٩, ١٦٥)، ومنها تتفرع خمسة طرق رئيسة إلى سائر أنحاء العراق (لسترانج: ١٩٣٣, ٣٢) كما يلي:

أ - طريق جنوبي بغداد

ب _ طريق شمال بغداد

ج _ طريق شرقي بغداد

٢) الطرق التجارية البرية الخارجية:

لم تكن الطرق التجارية البرية على درجة واحدة من الأهمية، إذ كان ثمة طرق دائمة أخرى وقتية أو فصلية، فضلا عن طرق رئيسة ثابتة يأتي في مقدمتها:

أ_ الطريق البري إلى أواسط اسيا حتى الصين والهند

ب _ الطريق البري بين العراق وشمال بغداد

ج_ الطريق البري نحو الشمال

د_ الطريق التجاري بين العراق والشام

الطرق التجارية المائية:

تقسم الطرق المائية إلى قسمين: أ. الطرق النهرية ب. الطرق البحرية

أولا: الطرق التجارية النهرية:

يرتبط العراق بشبكة من الطرق التجارية النهرية الهامة (الربوة: ١٨٦٥، ٦٣) عن طريقها كانت بغداد نقطة التقاء هذه الشبكات الهامة من الطرق، ومما لا شك فيه أن اختيار المنصور لموقع مدينة بغداد سنة (١٤٥ - ٧٦٢) جاء موقفا كل التوفيق، إذ يذكر الطبري في هذا الصدد على لسان أبي جعفر المنصور، حين قرر اختيار الموضع المذكور لبناء مدينة بغداد قوله: ((هذه دجلة - ليس بيننا وبين الصين شيء يأتيها كل ما في البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وما حول ذلك وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقعة وما حول ذلك)) (الطبري: ١٩٧٠، ٢٣٨).

١. نهر دجلة يعتبر نهر دجلة من أهم طرق المواصلات النهرية داخل العراق، فهو صالح للملاحة أقسامه العليا، وكان النقل فيه من الموصل إلى بغداد يتم بصورة طبيعي (الدوري: ١٩٩٩، ١٤١).

٢. نهر الفرات كان هذا النهر الممر الملاحي الثاني في العراق بعد دجلة ولم يكن يقل عنه أهمية فحركة الملاحة فيه مستمرة وكانت القوارب فيه تصعد شمالا حتى الرقة (الدوري: ١٩٩٩، ١٤٢)، وكان صالحا للملاحة على حد قول ابن خردانبة حتى مدينة سميساط في الشمال (ابن خرداية: ١٨٨٩، ١٧٤)، فكانت الملاحة منتظمة في الفرات كما كانت تجلة.

٣. أنهار بغداد: تحاط بغداد بأشهر عديدة مثل: نهر العبارة، ونهر مسجد الأنباريين، ونهر الصراه (مسكوية: ٢٠٠٢، ٤٠٦)، مصدرها نهران رئيسيان: الأول نهر الدجيل ومخرجه من نهر دجلة، ويتفرع منه نهير يقال له نهر مطاطيا ويمتد على جانبي مجراه ضياع وبساتين وعندما يقترب من بغداد يتشعب من نهر بطاطيا نهر ينخل مدينة بغداد، اتخذ مجراه من خشب الساج، ويتشعب من نهر بطاطيا نهر ثان يدخل بغداد، خارج مدينة المنصور المدورة، ولا يدخل مدينة المنصور (الراوي: ١٩٤٦، ١١٣).

أشهر الأسواق في بغداد

تعددت الأسواق في بغداد وتنوعت، ووجدت فيها الأسواق الرئيسية والأسواق الفرعية وقد تحدث ابن خلدون عن ذلك قائلا: ((إن الأسواق نوعان منها ما هو ضروري، ومنها ما هو كمال)) (ابن خلدون، الدرويش: ٢٠٠٤، ٣٠٤)، وقد وصفت أسواق بغداد بالزحام الشديد حتى إن المارة لا يستطيعون اجتيازها. لكثرة روادها (ابن الجوزي: ١٩٢٣، ٧٧)، وقد تخصص كل سوق من هذه الأسواق بسلعة معينة، ومن خلال أسماء الأسواق التي وجدت فيها، مستدل على التخصص الحرفي الدقيق فيها، حيث كان لكل حرفة سوقا خاصة (الشيزري: ١٩٤٦، ١١)، وهذا يدل على أن بغداد كما ذكرتها المصادر بأنها (معدن التجار) (ابن الفقيه: ١٩٩٦، ٦١).

أسواق الكرخ

والكرخ عبارة عن قرية قديمة، وسوقها أشهر سوق في بغداد (وبها اليسار ومساكن التجار) (الاصطخري: ١٩٣٧، ٥٩) وكان طولها من قصر وضاح (الحموي: ١٩٩٥، ٢٣٣)، إلى سوق الثلاثاء يبلغ فرسخين، وعرضها من قطيعة الربيع على دجلة فرسخا (اليقوي: ١٤٢٢، ٢٦).

سوق دار البطيخ

وهي سوق خاصة لبيع الفواكه، تقع خارج منطقة الكرخ، ولكنها نقلت من هذا الموضع زمن الخليفة المهدي (١٦٩ هـ - ١٧٩ هـ / ٧٨٥ م - ٧٩٥ م) (الحموي: ١٩٩٥، ٤١٩)، ويبدو أن هذا السوق يشغل مساحة واسعة قبل نقله إلى الكرخ، حيث يشغل درب الزيت ودرب العاج (ابن الجوزي: ١٩٩٢، ١٤)، ويتم فيه بيع مختلف أنواع الفاكهة (الطبري: ٣٢١ هـ، ١١).

سوق الصياغة أو سوق الذهب

كان لهذا السوق بناية شاهقة البناء، لا يوجد أفضل من بنائها في أسواق بغداد (المدور: ١٩٣٢، ٢٥)، وكان مخصصا لبيع الذهب والصياغة، ويشتمل هذا السوق على خمسة عشر دكانا يتم فيها بيع الذهب وأكثر العاملين في هذا السوق من الفرس.

سوق الطيور

يقع هذا السوق في باب الطاق (القزويني: ١٩٨٠، ٣١٥)، ويقصد بالطيور هنا الحمام، حيث كانت لأهل بغداد رغبة كبيرة بتربية الحمام، ويتردد على هذا السوق أصحاب هذه الهواية، حيث يتم بيع وشراء الطيور في حوانيت ونكاكين الطيور في بغداد.

سوق الجواري

ويتم فيه بيع الجواري والمغنيات (التنوشي: ١٩٩١، ٩٩)، كما وجدت دار الرقيق لبيعهم في مختلف الأفاق (ابن كثير: ١٩٨٦، ١٨٣).

سوق النحاسين

وقد عرف بصينية الكرخ، ويوصف بكثرة الإقبال عليه، ويتم فيه بيع مختلف أنواع الصناعات النحاسية، وقد وصفه ريسلر بصورة حية فقال: ((وكان سوق النحاسين يعج بطرقات المطارق)) (اليقوي: ١٩٦٤، ٥٤).

سوق باب الطاق

سوق رئيسي في بغداد، يوصف بالسوق العظيم (الاصطخري: ١٩٣٧، ٥٩)، وتباع فيه مختلف أنواع السلع، وكان زمن الرشيد مكانا يلتقي فيه العلماء والشعراء والأدباء، وأطلق عليه اسم مجلس الشعراء (وسوسه: ١٩٨٥، ١١٣).

سوق العروس

سوق العروس مجمع الطرائف، ويختص هذا السوق بتجهيز العرائس وكان يضرب به المثل في الحسن والجمال، فيقال: ((أحسن من سوق العروس)) (الميداني: ٢٠١٥، ٢٢٨)، ومن يريد أن يصف شيئا بالحسن والجمال يقول: كأنه سوق العروس، وكانت العادة الجارية باحتفال الناس بتجهيز العرائس بالطرائف والنفائس من هذا السوق (الثعالبي: ٢٠٠٣، ٤٨٩).

سوق الرياحين

ويتم فيه بيع مختلف أنواع الرياحين والورود والزهور، كما وجد في بغداد سوق المسك (الصابي: ١٩٨٨، ٢٢٦).

سوق الصباغين

يتم في هذا السوق صياغة الخيوط والمنسوجات، حين يستخدم الصباغون في ذلك الوقت نبات يصبغ به وبمصارتته (الفوة) (عروق، يصبغ ويداوي بها) ويطلق عليها اسم عروق الصباغين (الصابي: ١٩٨٨، ٢٢٦).

سوق السلاح

وهو من أوائل أسواق بغداد التي تم بناؤها، وتباع فيه الأسلحة والسيوف (الطبري: ١٩٧٠، ٣٠٥).

سوق خضير

كان سوقا مختصا بالتجار الصينيين، ويحتوي السلع والطرائف الصينية (اليقوي: ١٩٦٤، ٤٩).

سوق باب الشام

وهي سوق عظيمة فيها جميع التجارات والبياعات ممتدة ذات اليمين وذات الشمال أهله عامرة الشوارع والدروب والعراض (اليقوي: ١٩٦٤، ٤٨).

وبالإضافة الى بعض الاسواق الاخرى:

سوق يحيى

سوق الدجاج

سوق دار القطن

السلع التجارية

يتمتع العراق بخيرات وفيرة من حاصلات زراعية وصناعية يزيد إنتاجها عن حاجات سكانه، لهذا كان من الطبيعي أن تهتم السلطات الحاكمة بتصريف الفائض من هذه المنتجات والمحاصيل إلى الخارج.

ومنذ أن اختير موقع مدينة بغداد لأن يكون مركزا لعاصمة الدولة العباسية الناشئة كان في تقدير ذوي الرأي، أهمية هذا الموقع وضرورة وصول البضائع بسهولة ويسر إلى أسواق المدينة المراد إنشاؤها، وأن تأتيها الميرة في السفن الفراتية، والقوافل من مصر والشام والبادية والغرب وتأتيها سلع الصين والهند في البحر، ومن الروم وأرمينية والموصل في دجلة (ابن الفقيه: ١٩٩٦، ٣٠).

السلع التجارية الواردة

كانت السلع التجارية الواردة إلى العراق، تصل بكميات كبيرة إلى أسواق بغداد والتي غيرها من أسواق مدن العراق الأخرى، فكان ما بأسواق بغداد من أصناف السلع يفوق ما بأسواق البلدان التي تجلب منها البضائع، ويعود هذا إلى عدة عوامل نذكر منها:

أولاً: سهولة المواصلات بين بغداد وبين بلدان الشرق والغرب وكان معظمها يقع في قبضة العباسيين.

ثانياً: الثراء الواسع الذي بلغه العباسيون مع تأثرهم بمظاهر الحضارة الفارسية ورغبتهم الشديدة في تزويد قصورهم بمثل هذه السلع النادرة.

ثالثاً: محاولات الطبقات العامة تقليد الطبقات الغنية، مما ترتب عليه كثرة الدائن والمدين.

السلع التجارية الوارد من الهند

ترجع العلاقات التجارية بين العراق والهند والشرق الأقصى، إلى أقدم الأزمنة وهي تعتمد بالدرجة الأولى على المواد الكمالية الغالية الثمن، كالبهارات والعاج والأخشاب الصلبة وبعض المنسوجات الحريرية (اليقوي: ١٩٦٤، ٢٤٩)، وهكذا أصبحت التجارة البحرية مع الهند نشطة لقربها من العراق نسبياً، ولأن بعض الأحرار الهنود كانوا يشجعون التجار العرب، أما الطريق البري مع الهند (ابن بطوطة: ١٩٨٧، ١٥٧)، فكان طويلاً وشاقاً.

أما السلع التي كانت تجلب من الهند إلى أسواق بغداد، فاهمها الأحجار الكريمة والياقوت والأطياب بأنواعها والعود والصندل الأبيض، والأبنوس، والكافور من جزيرة طوران، والعنبر الذي كان يؤتى به من سواحل الهند الداخلية ويحمل إلى البصرة وغيرها.

السلع التجارية الواردة من الصين

كانت لعاصمة الخلافة العباسية بغداد علاقات تجارية قوية مع الصين، وكانت تستورد منها سلع بكميات كبيرة (الحسيني: ٢٠١٤، ١٤٠)، لأن الطرق التجارية التي تربط بينهما مأمنة نسبياً، ولأن التجار المسلمين يجدون في الصين الفنادق الخاصة للنزول فيها أو الإقامة عند التجار المسلمين الموجودين هناك والذين يقدمون كافة المساعدات للتجار الوافدين إلى تلك المناطق (ابن بطوطة: ١٩٨٧، ١٥٧).

السلع التجارية الصادرة

بنفس الطرق التجارية البرية والبحرية التي ترد عن طريقها السلع التجارية على أسواق بغداد خرجت منها القوافل محملة بالبضائع المختلفة إلى نواحي كثيرة من الدولة العباسية، بل وخارج حدودها، وكانت هذه القوافل تتجه نحو الغرب قاصدة دمشق وبلاد الشام وربما اجتازت إلى مصر وشمال أفريقيا، وقوافل أخرى اتجهت إلى الجنوب نحو البصرة - والهند والشرق الأقصى، وثالثة إلى الشمال نحو الموصل وطريزون على البحر الأسود وربما توغلت في أوروبا واربعة إلى الشرق نحو خراسان شم سمرقند وبدر الخزر (كرد، ١٩٦٨، ٤٦).

وقد اشتهرت كثير من مدن العراق بتجارة المواد الغذائية خاصة الحبوب والتمر والفاكهة، كما كانت تجارة الجمال والأغنام من أبرز أنواع التجارة بالعراق (الدوري: ١٩٩٩، ١٦٠).

الشركات التجارية

عرفت لدى التجار في العراق - كما هي حال المعاملات التجارية في المجتمع الإسلامي - أشكالاً متعددة من الشركات، ويأتي في مقدمة هذه الشركات (ابن طيفور: ٢٠٠٢، ٤٧).

١. شركة الوجوه (المفاليس)

٢. شركة العنان

٣. شركة المفاوضة

قائمة المصادر والمراجع

• القرآن الكريم

١. ابن بطوطة، محمد بن عبدالله، رحلة ابن بطوطة، دار احياء العلوم، بيروت، تحقيق محمد عبدالنعم، ١٩٨٧م، ط١.
٢. ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٨٤٦.
٣. ابن خلدون، عبدالرحمن، المقدمة، تحقيق عبدالله محمد الدرويش، دارالعرب، ط١، دمشق، ٢٠٠٤.
٤. ابن طيفور، ابوالفضل احمد بن ابي طاهر، بغداد، تحقيق السيد عزت العطار، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٢.
٥. ابن كثير، الحافظ بن اسماعيل بن عمر الدمشقي، البدايه والنهائه، دارالفكر، مصر، ١٩٨٦.
٦. ابن واصل، محمداصل بن نصرالله، مفرج الكروب، تحقيق جمال الدين الشيال، دار الكتب والوثائق القومية، مصر، ١٩٥٣.
٧. ابو الفرج الاصفهاني، علي بن الحسين، ادب الغرياء، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٢م.
٨. أبو المطهر الاذري، محمد بن احمد، حكاية ابي القاسم البغدادي، مكتبة المثني، بغداد، ١٩٠٢.
٩. ابو حنيفة الدينوري، احمد بن مروان بن محمد، الثبات، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٢.
١٠. الميداني، ابي الفضل احمد بن محمد، مجمع الامثال، تحقيق، محمد محيي الدين، دارالمعرفة، بيروت، ٢٠٠٤.
١١. الهمداني، ابي بكر، مختصر البلدان، مكتبة المثني، بغداد، ابي بكر احمد بن محمد الهمداني، ١٩٦٣.
١٢. اليعقوبي، ابوالعباس احمد بن اسحاق، تاريخ اليعقوبي، تحقيق محمداصل بن بحر العلوم، مطبعة الفري، النجف، سنة ١٩٦٤.
١٣. المسري، حسين علي، تجارة العراق في العصر العباسي، جامعة الكويت، الكويت كلية اللغة العربية، ١٩٩٢م.
١٤. ليسترانج، بغداد، دار ميزوبوتاميا، للطباعة والنشر، باريس، ٢٠٠٢.
١٥. عون، عبد الرؤوف، الفن الحربي في صدر الاسلام، الفن الحربي، دارالمعارف، القاهرة، ١٩٦١.
١٦. الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم، دارالمعارف، ط٢، مصر، ١٩٧٠.
١٧. الصولي، محمد بن يحيى، اخبار الشعراء، مطبعة الراوي، ط١، مصر، ١٩٣٤.
١٨. سعيد، فهمي، العامة في بغداد، دارالمنتخب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣.
١٩. الخضري، محمد، الدولة العباسية، دارالكتب العلمية، بيروت، ١٨٧٢م.
٢٠. الخطيب البغدادي، ابوبكر احمد بن علي، تاريخ بغداد، تحقيق بشار عواد معروف، دارالغرب الاسلامي، ط٣، بيروت، ٢٠٠١.
٢١. حسن، حسن ابراهيم، تاريخ الاسلام، دارالرشيد، بغداد، ١٩٨٦.
٢٢. الجاحظ: ابو عثمان عمر بن بحر، الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون، دارالكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣.
٢٣. الثعالبي، عبدالملك بن محمد بن اسماعيل، تحفة الوزراء، تحقيق حبيب علي الراوي، الذر العربية، القاهرة، ١٩٧٤م.
٢٤. الألوسي، عادل محي الدين، تجارة العراق البحريه، دارالشؤون، الثقافية بغداد.
٢٥. حمدان، جمال، جغرافيه المدن، عالم الكتب، ط٢، دمشق، ١٩٧٠.
٢٦. ابن كثير، الحافظ بن اسماعيل بن عمر الدمشقي، البدايه والنهائه، دارالفكر، مصر، ١٩٨٦.
٢٧. ابن طيفور، ابوالفضل احمد بن ابي طاهر، بغداد، تحقيق السيد عزت العطار، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٢.
٢٨. متز، ادم، الحضارة الاسلامية، تحقيق محمد عبدالهادي، دارالفكر العربي، مصر، ١٩٩٩.
٢٩. المقدسي، محمد بن احمد، احسن التقاسيم، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٩٩١.
٣٠. شيخ الربة، شمس الدين ابوعبدالله الانصاري، نخبة الدهر وعجائب البر والبحر، دار احياء التراث العربي، دمشق، ١٩٨٨.
٣١. ابو يوسف، يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن سعد، الخراج، تحقيق طه عبدالرؤوف، مكتبة الازهرية للتراث، مصر، ١٩٨٠.
٣٢. ابن الجوزي، جمال الدين ابوالفرج عبدالرحمن، المنتظم، ج١ و٢ و٣، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دارالكتب العلمي، بيروت، ط١، ١٩٩٢.
٣٣. ابو الفضل الدمشقي، جعفر بن علي، الاشارة الى محاسن التجارة، مطبعة المؤيد، القاهرة.
٣٤. ازدي، محمد بن احمد، حكاية ابي القاسم، مكتبة المثني، بغداد، ١٩١٧.
٣٥. بن مسكويه، ابوعلي احمد بن محمد، تجارب الامم، تحقيق ابوالقاسم امامي، مروت، طهران، ط٢، ٢٠٠٠م.
٣٦. خرداذبة، عبيدالله بن عبدالله، المسالك والممالك، دار صادر، لبنان، ١٨٨٩.
٣٧. الشيزري، عبدالرحمن بن سفي، نهاية الرتبة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، بيروت، ١٩٤٦.